ثقافتان وحضارة واحدة

بقلم: أنور الجندي
أستاذ بجامعة القاهرة

يبدو أن هناك ضرورة حتمية لتحديد مفاهيم الالفاظ التى يجرى تداولها كثيرا هذه الايام . أولى هذه الالفاظ اختلاطا على الفهم «الثقافة والحضارة» فقد جرى استعمال كلمة «الحضارة بدلا من الثقافة» عند كثير من الكتاب على أساس انها أوسع مدى واشمل . وأن الحضارة تضم الثقافة تحت جناحها . غير ان هذا جرى دون تعمق لمعنى اللفظين الذين يجب التفريق بين مفهومهما ومضمونهما حيث تبدو اهمية لا حد لها لتحديد معنى كل منهما توقيا للخلط بينهما واستعمال كل منهما فى مكانه .

ولا ضرورة لاعادة ما قاله عشرات الباحثين فى التفرقة بين مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة . وغاية ما يجمع عليه المفكرون فى هذا هو أن الثقافة فكر والحضارة مادة ومجتمع .

ولا شك ان الحضارة نتيجة الثقافة وان كل حضارة بدأت فكرة أولا ثم انبثقت منها الحضارة غير أن تطور الحضارات على مدى العصور قد بلغ درجة من االنضج البشرى فلم تعد هناك حضارات منفصلة ترتبط باقليم دون اقليم او أمة دون أمة . وهذه الحضارة التى تعيشها اليوم ، لا يصح اطلاق لفظ «الحضارة الغربية» عليها وانما هى حضارة بشرية انصبت فى بوتقتها مختلف الحضارات والثقافات القديمة والمتوسطة كحضارات مصر وبابل واشور وحضارات اليونان والرومان والعرب والمسلمين ومن عصارة هذه الحضارات وتجاربها الواسعة المحددة المراحل قامت هذه الحضارة فى القرن الخامس عشر واستمرت الى اليوم وشملت العالم كله .

والحضارة هنا فى تقديرنا هى الآلة والماكينة والعلوم التكنيكية والاختراعات والكشوف والذرة والصواريخ عابرة القارات .

أما الثقافة فهى الفكر بقطاعاته المختلفة من لغة ودين وأدب وتاريخ وهنا تبرز أمامنا ثقافات متعددة لها طابعها المستقبل المختلف فى كل ثقافة عن الثقافة الاخرى .

وابرز ما يبدو هذا الاستقلال واضحا فى ثقافة الشرق والغرب . ثم فى ثقافة الشرق تبدو ثقافة الفكر العربى الاسلامى لها طابعها المتميز عن ثقافة الهند والصين وان اتسمت ثقافة الشرق بالطابع الروحى .

وتبدو ثقافات الغرب متميزة ايضا فى ثقافة الغرب والثقافة الماركسية والثقافة اليهودية ولكل طابعه الواضح وان اتسمت ثقافة الغرب بالطابع المادى .

ومن بين هذه الثقافات تبدو «الثقافة العربية الاسلامية» ولها طابع مزدوج واضح الملامح فى الارتباط بين الروح والمادة والعقل والضمير . ومن هنا يبدو أن هناك ثقافتين وحضارة واحدة :

(1) ثقافة الغرب (بشطريها الغربى والماركسى) وهما يقومان على أساس واضح وقاعدة واضحة هى : مادية الفكر .

(2) الثقافة العربية الاسلامية : وهى تقوم على قاعدة الربط بين المادة والروح ومن المعتقد انه لا سبيل الى

تغيير الاساس او القاعدة فى كلتا الثقافتين ولا سبيل الى حمل اى ثقافة منهما الى تبنى قيم الثقافة الاخرى . ولكن هذا ليس معناه التوقف عن الاخذ والعطاء بين الثقافات اذ هى ظاهرة حتمية وناموس أزلى هذا الاخذ والعطاء الذى لم يفقد كلا الثقافتين طابعها الاصيل . وفى تجربتين قديمتين تم هذا فى حرية كاملة وسلامة تامة فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) عند ما نقل الفكر العربى الاسلامى وترجم آثار اليونان والرومان واختار منها ما وافق مضامينه وقيمه الاساسية وفى القرن الرابع عشر الميلادى نقل الفكر الغربى آثار العرب الفكرية (ومن بينها ترجمات اليونان والرومان) التى كان الفكر العربى الاسلامى قد لونها بطابعه واضاف اليها وحذف منها وفى كلا التجربتين الضخمتين لم يفقد كل من الفكر الغربى او الفكر العربى الاسلامى طابعه وشخصيته .

ثم قامت الحضارة على هذه الاسس التى صنعتها الحضارة الاسلامية التى كانت فى أرض الغرب (الاندلس) وفيها بدأ الامتداد الحضارى متصلا ، أخذ العرب فكر اليونان والرومان ، مضافا الى ثقافات الفرس والهنود والمصريين وانصهر كله فى كيان واضح ثم أفضى الى الغرب فى عصر النهضة فصنع الحضارة البشرية الحديثة التى هى فى الواقع «الانسانية» التكوين بحكم اشتراك الامم والشعوب كلها فى بناء اساسها وان تحولت الى طابع لا انسانى فى توجيهها مرتبطة بالاستعمار والقيم الفكرية الغربية التى آمنت (1) بالمادية و (2) العنصرية و (3) تمييز الرجل الابيض (4) استنزاف الشعوب والسيطرة عليها .

ومن هنا مضت « الحضارة » فى طريق مفتوح وامتدت الى العالم كله الذى يعيش الان فى آلاتها وأدواتها ولكن هل امتدت الثقافة الغربية فسيطرت على الفكر الإنسانى هذا هو ما نشك فيه فان تجربة اليابان فى أوائل هذا القرن كانت واضحة وضوحا تاما حيث اقتبست الحضارة ورفضت الثقافة الغربية وتجربة الهند ايضا التى مضت فى طريق الحضارة وحافظت على قيمها الثقافية وطابعها الاساسى .

ونحن فى عالمنا «الشرق الاسلامى» وفى قلبه الامة العربية نجد أن الغرب قد حاول خلال مرحلة الاحتلال لارضنا منذ 1830 تقريبا الى 1954 (الجلاء عن المغرب) الى 1956 (الجلاء عن مصر) 1962 الجلاء عن الجزائر أن يفرض هذا الفكر عن طريق المدرسة والصحيفة والكتاب والفيلم السينمائى .

وفى ظل قوى غاصبة وقوى حاكمة مؤيدة للاحتلال استطعنا أن نقاوم ولم نستسلم حتى اذا اتيح لنا أن نتحرر من الاحتلال العسكرى والسياسى بدأت موجتها لهذه القوى تأخذ طابعا جديدا .

فقد خلف الاستعمار العسكرى السياسى جيوشا فى وطننا تمثل الغزو الفكرى والثقافى وتحمل أمانتها للقيم الغربية وهى تحاول أن تخفى اليوم هدفها فتتقلم فى قوة متجمعة يمكن أن يطلق عليها « الشعوبية الفكرية » وتجد من بعض صحف العالم العربى ما يفسح لها اذاعة آرائها وبث سمومها .

وعندى أنه ما دمنا قد اخذنا بعض جوانب الحضارة أساسا مفروضة علينا فى ظل النفوذ الاجنبى فقد استطعنا بعد التحرر من هذا النفوذ أن نأخذ الجانب الاقوى جانب الصناعة والآلة والذرة والصواريخ عابرة الفضاء هذا الجانب الذى حرص الغرب على أن يحول بيننا وبين بناء مصانعه او القدرة على السيطرة عليه .

وكان هذا التحول فى واقعنا بعد التخلص من النفوذ الاجنبى بالغ الاهمية والخطورة فلم تعد الحضارة ترف وملابس وعطور وارضاء للغرائز وهو الجانب الوحيد الذى قدمه لنا الغرب من الحضارة خلال فترة احتلاله — وعندى اننا قد حققنا بذلك استكمال موقعنا من الحضارة التى هى ملك بشرى مشاع .

بقى الامر فى مجال الفكر وهو ما لا سبيل الى نقله او اقتباسه وانما يجرى الامر فيه وفق قانون أساسى وناموس أزلى هو أن لكل امة مقوماتها الاساسية هذه المقومات التى تمثل قيم فكرها وملامح شخصيتها وهو ما لا سبيل الى التخلص منه . وهو ما حاول الغرب خلال اكثر من مائة عام أن يقضى عليه دون جدوى .

هذا الاساس يجب ان يبرز ويتضح ويصبح أساسا معترفا به فى مواجهة الفكر الانسانى اما النظرية التى كانت سارية ومعترفا بها وهى الاخذ بخير ما فى القديم

وخير ما في الجديد فهذا تمويه شعوبي يراد به القضاء على مقوماتنا الاساسية او وضعها في كفة ميزان مع الجديد الوافد .

فاذا تحدد هذا الاساس واتضح امكن محاكمة (القديم والتراث) من ناحية (والوافد من فكر الامم الينا) من ناحية أخرى محاكمة واضحة للاخذ والرفض والابقاء والحذف .

ونحن في هذا كله نؤمن بالفكر المفتوح المتطلع الى ثمرات الفكر الانساني من الشرق والغرب والقديم والجديد . وقد كنا ولا نزال دائما قادرين على الحركة والتطور في مرونة وحيوية . ولسنا نخشى أن يغلب فكر على مقوماتنا المعطية لخير ما في الفكر الانساني أساسا والتي عاشت عمرها كله لم تواجه أزمات القلق والاضطراب أو التجمد والتحجر أو التمييع والانفراط .

الثقافتان بين الانصهار والامتصاص

ولا شك أن الفكر العربي الاسلامي والفكر العربي بينهما أبعاد واضحة واختلاف صريح في أسس كل منهما . ليس معنى هذا ان التقارب والالتقاء لا يقع . فذلك أمر مقبول لدى الفكر العربي الاسلامي المتفتح المتطور المرن القابل للثقافات الانسانية والفكر العالمي على أساس من قيمه ومقوماته . ولكن الامر العسير الذي لا نعتقد أنه يقع هو امتزاج الفكر العربي الاسلامي والفكر العربي في فكر واحد وينسى دعاة هذا الامتزاج انه لا بد له لكي يتحقق أن «يذوب» احدهما في الآخر وينصهر وهذا امر جد عسير .

ولقد جرت المحاولات لهذا ودعاة التغريب والشعوبية من قبل الى أن تأخذ فكر الغرب وجاء من يدعو الى أن تأخذ فكر الماركسية وفشلت كلا الدعوتين وان أخذنا من الفكرين على نحو معين هو ما ندعوه « بالامتصاص» وهو غير النقل والاقتباس .

وليس من شك أن بين الفكرين والثقافتين فروقا ولن يلتقي الاثنان التقاء انصهار واذابة أما في مجال الحضارة فان الامتزاج قائم وكائن وسبل النقل والاقتباس مفتوحة وجائزة .

وهذا هو الفرق بين الثقافة والحضارة فالفكر يقوم أساسا على مقومات ثابتة ، تتطور فروعها وتتحرك ويدخلها التجديد والتحول والتغيير اما الحضارة فهي نمط من الحياة يمكن تغييره دون تحول أسس الفكر . فقد أخذ اليابان حضارة الغرب ولم يأخذ فكره وكذلك فعلت الهند .

ونحن لا نستطيع أن ناخذ لغة الغرب ولا مفاهيمه الروحية ولا تاريخه و لامثله العليا ولا قيمه وانما نستطيع أن ناخذ حضارته في البيت والشارع وفي الماكينة والآلة والصناعة والحضارة والتكنيكية اى اننا نلبس عقائدنا وافكارنا وقيمنا اثوابا عصرية فنحن لا نستعمل الآن الجمل او الناقة او ناكل او نشرب او نقيم في مساكننا أو نتحرك على النحو الذي كان يتحرك عليه القدماء ، ولكننا حين نفكر لا بد ان نعرف ان لنا أسسا أصلية وقيما واضحة هي قاعدتنا في تكوين شخصيتنا ومجتمعنا وفكرنا .

ومن الميسور ان يمتزج العالم كله في مجال الحضارة ولكنهما لا يمتزجان في مجال الثقافة والفكر . وليس معنى هذا ان «الانسانية» لا تستطيع أن تلتقي على وحدة فكر وانما معناه أن فكر الغرب سيظل متميزا لقيمه ومفاهيمه المستمدة من الفكر اليوناني والثقافة الرومانية والمسيحية والمادية وكلها أسس اكيدة لفكر الغرب الحديث لا سبيل الى تخليه عنها بينما يقوم الفكر العربي الاسلامي على أساس ترابط الروح والمادة والتقاء العقل والضمير متمثلة في اللغة والدين والتاريخ التي تمثل مفاهيم واضحة .

أنور الجندي ـ القاهرة